

شعرية اللغة عند مفدي زكرياء اللهب المقدس أنموذجا

د. لخضر ذيب

قسم اللغة العربية وآدابها

كلية الآداب واللغات - جامعة عمار ثليجي الأغواط

ملخص : لقد هدفت هذه الدراسة إلى لفت الاهتمام بأيقونة الشعر الثوري الجزائري، هذا الأديب الذي أبدع أعمالا جلية وسخر قلمه للدفاع عن ثوابت الأمة في مرحلة أقل ما يقال عنها أنها مرحلة اتسمت بالقمع وتكميم الأفواه ، وتشويه صورة الجزائريين ، وعلى الرغم من قسوة الظروف الاستعمارية إلا أن الشاعر مفدي زكريا قد أثرى الساحة الثقافية الجزائرية ورفد المكتبة الجزائرية خاصة والعربية عامة بإبداعاته الشعرية. وقد حاولت الدراسة تتبع لغة الشاعر بالكشف عن جمالها المحتبئ و تتبع تراكيبه النحوية وأثر استخدامها على نصه.

RESUME :

Cette étude vise a mettre en cause se poète révolutionnaire algérien ,cet auteur qui a donné par ses mots , de grande œuvres afin de défendre sons pays et sa nation contre un tel colonisateur et malgré toutes les conditions difficiles que connaissait notre poète , il a pu enrichir la bibliothèque algérienne et arabe de plusieurs créations poétiques.

L'étude a essayé de suivre la langue du poète détecte cacher sa beauté et suivre les Compositions grammaticale et l'impact de l'utilisation sur son texte.

مقدمة : اللغة عنصر أساس يعول عليه الأديب شاعرا كان أو ناثرا في بناء نصه وبها تتحقق الشعرية التي تضفي على العمل الإبداعي جمالا إضافيا يخرجها من وظيفتها التواصلية المباشرة إلى الوظيفة الفنية الإيحائية ، لكن لغة الشاعر تختلف عن لغة الناثر ، فالأول سيد للغة ، يروضها ويطوعها ويحتويها وهو بذلك يعلي من شأنها ، لأنه يضعها في علاقات جديدة قادرة على منحها طاقة جبالية ليست في حالة عزلتها أو في تركيبها التقليدي¹. أما الثاني فشأنه من اللغة أن يستخدمها كما هي على حقيقتها .

لذلك يمكننا القول : " إن لغة الشعر هي الوجود الشعري الذي يتحقق في اللغة انفعالا وصوتا موسيقيا وفكرا"² ، بل هي " المادة الأساسية المشكلة لوجودنا الثقافي والحضاري وبالضرورة هي الأساس أيضا في عملية الإبداع الفني ، لذلك فإن لكل أديب طريقة خاصة في استخدام الكلمة وتركيب الجملة من حيث النحو البلاغي . إن الأديب لا يركب الجملة ليعبر بها عن معنى تقريرى مألوف . وإنما يتعامل مع اللغة بطريقة تفجر فيها خواص التعبير الأدبي ، وتجعل للعبارة والأنساق

1 - خليل إبراهيم العطية : التركيب اللغوي لشعر السياب ، دار المعارف للطباعة والنشر - سوسة - تونس ، 1999 ، ص17

2- سعيد الورقي : لغة الشعر العربي الحديث ، مقوماتها الفنية وطاقتها الإبداعية ، دار المعارف ، مصر ، القاهرة ، ط2 ، 1983 ، ص08

والجمل قوة ، تتعدى الدلالة المباشرة ، و تنقل الأصل إلى المجاز ، لتفي بحاجة الفن في التعبير والتصوير¹.
الإشكالية : يحاول البحث الإجابة عن التساؤل الآتي : هل لغة الشاعر تختلف عن غيره من الناس وإلى أي مدى يصل الاختلاف ؟ و إذا كان الأمر كذلك فلماذا يكتب الشاعر ؟ ومن يقرأ شعره ؟ ومن يفهمه ؟
تهدف الدراسة إلى التعرف على لغة الشعر عامة ولغة الشاعر مفدي زكرياء خاصة في جانبها الجمالي وذلك بتوظيفه لبعض التقنيات اللغوية التي تضفي على النص بعدا دلاليا وجمالي فضلا على الانسجام والتلاحم الحاصل في بنيته اللغوية باعتباره كل متكامل

بحثنا في الأساس هو محاولة للكشف عن الجمالية التي تختبئ خلف الجانب التقني للغة ، وسنحاول تلمس تلك الجمالية في بعض شعر مفدي زكرياء.

هذا الطرح يقتضي بالضرورة أن يكون للشعر لغة خاصة تميزه عن لغة النثر و لا نتحرج في القول: إن لغة الشعر أثارت ضجة ونقاشا حادين ، بل فجرت قضية أدبية كبيرة أخذت حيزا كبيرا من مساحة النقد العربي قديما وحديثا². مما جعل أدونيس يقول " لم أقصد من هذا التفجير استخدام التراكيب الدارجة في لغة الحياة اليومية أو المفردات النابية المبتذلة أو الصيغ غير النحوية أو الألفاظ الأجنبية والعبارات العلمية ، أو التبسيط الصحفي ، مما يوهم الذين يمارسون هذا الاستخدام أنهم يجددون ظنا منهم أن هذه الأشياء لم يعرفها الأقدمون ، وإنما عنيت تفجير البنية الشعرية التقليدية ذاتها ، أي بنية الرؤيا وأنساقها ومنطقها ومقارباتها ، أو بعبارة أكثر إيجازا تفجير مسار اللغة وأفقها"³.
قد تتفق مع أدونيس في جزئية معينة كونه يدعو إلى تجاوز النمطية الشعرية ، لكون الشعر تجربة لا صناعة ، فحري بنا أن نجرده من التأطير والتحديد والقومسة⁴ ، التي ترى أن للشعراء ألفاظا معروفة وأمثلة مألوقة لا ينبغي للشاعر أن يتعدها ولا أن يستعمل غيرها كما أن الكتاب اصطلاحوا على ألفاظ بأعينها سموها الكتابية لا يتجاوزونها إلى ما سواها⁵.
طبعا هذه مغالطة تحد من فاعلية الكلمة ، لأن الشعر تحرر وانطلاق ، تعدد واتساع مجال فسيح رحب ، وبناء علاقات ، فالكلمة في الشعر غيرها في النثر فعنى الكلمة في الشعر ليس في ذاتها بل في سياقها وعلاقاتها بما قبلها وما بعدها وهو التلوين الذي تأخذه بفضل طريقة التعبير ، للكلمة في النثر معنى واحد هو معناها الذي وضعت له أصلا وهو معناها الأول . أما في الشعر فإن للكلمة بالإضافة إلى هذا المعنى الأول معنى ثانيا ، ويتعدد هذا المعنى بفضل الصور التي تحدث تغييرا في دلالة الكلمات من حيث أنها تستخدمها بغير ما وضعت له أصلا⁶. فالكلمة هي الكلمة ، لكن العبارة بطريقة الاستخدام التوظيف ، فهي بمثابة كائن حي يفجر مع كل قراءة مدلولات كثيرة أنها توحى بما لا يحدد ، لذلك تحتفظ بقيمتها⁷.

التراكيب النحوية :

1- التركيب الشرطي :

- 1- عبد السلام المسدي : الأسلوب والأسلوبية ، دار سعاد الصباح ، ط4 ، 1994 ، ص207-208
- 2- شاكرو النابلسي : الضوء واللغة استكناه نقدي لنزار قباني ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، 1986 ، ص528
- 3- أدونيس : سياسة الشعر ، دار الآداب ، بيروت ، 1985 ، ص17
- 4- أي تحديد قاموس شعري للشعراء لا يتجاوزونه أو يخرجون عنه ، وإلا عد خروج عن الشعر
- 5- ابن رشيق : العمدة ، تحقيق وتعليق : محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة ، مصر ، ط1 ، ج1 ، 1963 ، ص107
- 6- أدونيس : كلام البدايات ، دار الآداب ، 1989 ، ص167
- 7- فاتح علاق : مفهوم الشعر عند رواد الشعر العربي الحر ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 2005 ، 217

إن الشرط معنى عام ، يمين على الفكرة منذ نشوئها في الذهن ، فيعبر المتكلم عن هذا المعنى بأسلوب خاص من أساليب نظم الجملة¹، فهو أسلوب لغوي يبنني على جملة ميكانيكية تتألق من أداة و حرف و اسم ، ومن تركيبين سمي الأول الشرط ، والثاني الجواب والجزاء ، تقوم الأداة بربط التركيبين أو الشقين ارتباطا وثيقا يحول دون استقلال أحدهما عن الآخر ، ينزل الشق الأول منزلة السبب والشق الثاني منزلة المسبب ، ويتحقق المسبب إذا تحقق السبب ، وينعدم الثاني إذا انعدم الأول².

والشرط هو تعليق شيء بشيء ، بحيث إذا وجد الأول وجد الثاني ، وقيل : إن الشرط ما يتوقف عليه وجود الشيء ، يكون خارجا عن ماهيته ولا يكون مؤثرا في وجوده ، وقيل الشرط ما يتوقف ثبوت الحكم عليه³ . و أسلوب الشرط يتألف - غالبا - من ثلاثة عناصر التي هي أداة الشرط ، وفعل الشرط وجواب الشرط ، أما أدوات الشرط فهي " كلمات وضعت لتدل على التعليق بين الجملتين والحكم بسببية أولاهما ومسببية الثانية ولذلك يجب استقبال الفعلين بعدها ، لأن أدوات الشرط من شأنها أن تنقل الماضي إلى المستقبل ، وتخلص المضارع له"⁴.

لقد شاع التركيب الشرطي في شعر مفدي زكرياء بشكل لافت للانتباه ، ومرد ذلك هو ما يمتاز به هذا الأسلوب من مرونة لغوية ، نابعة من تعدد الأدوات ودلالاتها ، وتنوع في التراكيب التي تدخل عليها ، فهي تدخل على الجملة الفعلية غالبا ، ولكنها لا تلتزم زمنا محددًا ، ثم إنها تدخل على الجملة الاسمية في بعض الأحيان ، على تقدير فعل مضمر بعد الأداة .

إن هذا التنوع والتعدد يوفران للشاعر ثراء في استعمال اللغة والتعامل معها ، وقد يكون ما يمتاز به أسلوب الشرط من تعقيد وتركيب ، لكونه يتألف من جملتين ، تتعلق إحداها بالأخرى ، سببا في ميل الصعاليك إليها ، لأنها توافق ما في نفوسهم من حدة الطبع ، وشدة انفعال ، وتقلب وحركة ، وهو ما يفسره هذا التركيب للجملة الشرطية ، ومن خصائص أسلوب الشرط أن الخطاب يكون فيه أعم .

وكما سبق وأشرنا ، فالمتصفح لديوان اللهب المقدس ، يكاد لا يجد قصيدة تخلو من هذا المؤشر الأسلوبي ، ولعل في اهتمام الشاعر بهذه البنية وتوظيفها ضمن نصوصه الشعرية ما يحقق الفائدة التي يتوخاها مفدي زكرياء حين استخدم هذه التقنية والتي تتجسد في خلق حركة شعرية وفضاء مكاني فسيح للروح بمكنوناته والإعراب عن أفكاره. فهو يقول :

واقض يا موت في ما أنت قاض أنا راض إن عاش شعبي سعيدا

أنا إن مت ، فالجزائر تحيا حرة مستقلة لن تبيدا

قولة ردد الزمان صداها قدسيا فأحسن التريدا⁵

فارتباط عبارة الشرط " مت " بعبارة الجواب " فالجزائر تحيا " ، مبني على وجه المقابلة بين الموت والحياة ، فموت فرد

1- سناء حميد البياتي : قواعد النحو في ضوء نظرية النظم ، عمان ، دار وائل ، ط4 ، 2003 ، ص49

2- ميشال زكريا : الأسنسية (علم اللغة الحديث) المبادئ والإعلام ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ط2 ، بيروت ، 1983 ، ص91

3- أبي الحسن علي بن محمد بن علي الجرجاني : التعريفات ، تح : إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب العربي ، بيروت لبنان ، ط1 ، 1405 ، ص166

4- السيوطي : همع الهوامع في شرح جمع الجوامع ، تحقيق : عبد الحميد هندواوي المكتبة التوفيقية ، القاهرة ، ج2 ، 1986 ، ص59

5- مفدي زكرياء : اللهب المقدس ، ص10

هو حياة الجميع ، والشاعر وهو يتكلم بلسان الشهيد بل بلسانه يرجو تحقق الموت ، التي تمنحه فرصة أن يكون ضمن قائمة الشهداء ، هذه الشهادة أو هذه الإجازة تمنحه الحياة الأبدية الأخروية ، كما تمنح له الفضل في أن يحقق لشعبه الحرية والحياة الدنيوية . وم هو جميل أن يظهر مفدي قدرته اللغوية في التعامل مع أزمنة التركيب الشرطي ، حيث يوظف الفعل المضارع في فعل الشرط " تحيا " لير إلى الدلالة المستقبلية في قوله : " لن تبيدا " مما أكسب البيت حيوية وحركة صاحبته سيرورة الزمن الفعلي ، وأضفت عليه مزيدا من الدلالات تتواءم والغرض الشعري وتنسجم ودلالة النص العامة ، بل الأجل من ذلك أن يحسن الشاعر اختيار أداة الشرط (إن) التي تحقق هذه الدلالة ، فإن الأصل فيها أنها تأتي للمعاني المحتملة الوقوع والمشكوك في وقوعها¹. فالشاعر يشكك في موت " زبانا " ، بل هو على يقين أنه حي يرزق في جنة عدن ، وعدا على الله حق ، كما أنه يشكك في بقاء الاستعمار على أرض الجزائر فلا بد من يوم تبرز فيه شمس الحرية على أرض الجزائر الحبيبة ، وفعلا قد جاء هذا اليوم . ومحاولة منه لتأكيد هذه المعاني في تجربته الشعرية ، وفق شعرية نصية ، يلجأ الشاعر مرة أخرى إلى توظيف أسلوب الشرط مع تغيير الأداة فيجعل الملتقي متيقنا بأن الجندي الجزائري في ساحة الفدى يقف أمام موقفين لا ثالث لهما ، إما النصر وإما الشهادة ، فيقول :

كن شواظا وتنزل كالتقضا
وتفجر فوق هامات الجبابر
صلواتي لك والله معك
سوف القاك بأعياد البشائر
فإذا ما عشت ، حققت الرجا
وإذا ما مت فلتحي الجزائر²

لقد استعمل الشاعر أداة الشرط " إذا " التي اتصلت بها ما الزائدة التي تفيد التوكيد ، كقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَحْتَبِرُونَ كِبَايَرِ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾³ . والأصل في هذه الأداة " أن تكون للمقطوع بمحصوله ولكثير الوقوع"⁴ ، حيث تؤدي وظيفة الربط والتعليق ، أي أن يعلق الشيء على شيء ، فاستفاد منها مفدي ليدفع ابنه إلى ساحات الوغى للذود عن الوطن في دلالة شرطية تلازمية مقطوع بمحصولها ، مما أضفى على البيت الشعري جوا نفسيا يجد فيه الملتقي صدق مشاعر من ناصح أمين يريد أن يصل بالبلاد إلى بر الأمان ، فهو يقدم ابنه ليكون نموذجا يحتذى به أبناء الجزائر . ولنتأمل قوله⁵ :

در أبي ذر وثورته فما (لماركس) عنه اليوم ألهانا
ويل القوي ، من المستضعفين ، إذا
الخير والشر في هذا السورى دول
حان القصاص... ودائنا خطايانا
فاصنع جميلا تجد عدلا وإحسانا
فالوقوف عند هذه البنية الشرطية ، يظهر براعة الشاعر في إيجاد الانسجام في هذه الثنائية التقابلية بين السلوك القوي وسلوك المستضعف ، والأمور تزداد بيانا عندما تقابل بأمر مباين له⁶ .

1- فاضل الصالح السمرائي : معاني النحو ، ط1 ، الكويت ، 1981 ، 448/4

2- مفدي زكرياء : اللهب المقدس ، ص06

3- سورة الشورى ، الآية 37

4- موفق الدين أبو البقاء بن يعيش الموصلي : شرح المفصل للزمخشري ، تحقيق : إميل بديع يعقوب ، دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان ، 2001 ، ص126

5- مفدي زكرياء : اللهب المقدس ، ص298

6- نوزاد حسن خوشناو : التركيب الشرطي (إذا) الدال على الثنائية التقابلية لسلوك المنافق في القرآن الكريم ، مجلة كلية

والمتلقي يجد نفسه في موقف حرج إزاء هذه القضية الإنسانية ، إنه يستمع لأطراف النزاع وهم يتبادلون التهم والإدانات في المحكمة الإلهية ، أمام العدل والحق ، حيث لا ظلم اليوم واقترب القصاص وإصدار الحكم ، طبعا عنصر المفاجأة مستبعد ، لأن السياق يقتضي أن تكون الغلبة للمستضعف المظلوم ما دام الحكم إلهيا ، فلا تعارض بين ما يرجوه الشاعر ويتوقعه القارئ ، ولعل في ذلك تمام الشعرية واستيفائها لجميع جمالياتها حين تنتفي المعوقات وتزال الحواجز بين المتلفظ والمتلقي ، لأنها أشبه ما تكون بمنهج منكسر بعنصر غير متوقع¹. وقد تم هذا التقارب باستخدام الأداة " إذا " والتي تختص بدخولها على " المتيقن والمظنون " ² ، بل إن ذلك يؤكد علاقة اللغة بعلم النفس ، إذ تمتد العلاقة بينهما إلى التركيز على بنية التراكيب النحوية في بعدها النفسي³.

وبذلك استطاع الشاعر مفدي زكرياء أن يحقق رغباته ، وأن ينتصر لنفسه وللشعب الجزائري ولجميع المضطهدين في المعمورة ، حين أسند الحكم للعدالة الإلهية .

التقديم والتأخير :

يسعى الشاعر جاهدا ليصنع له لغة شعرية تختلف عن غيره من الشعراء ، لغة الشعرية ويحطم من أنساقها ونظامها الثابت ويخلق لنفسه نظاما فريدا خاصا به ، وبهذا الفهم فإننا نذهب الآن إلى أن الصورة الفنية شيء ضروري حتمي ، لأن الشاعر بمجرد أن يحاول التجديد والكشف يضطر إلى التعامل مع الاستعارة والمجاز وغير ذلك . والشاعر عندما يحاول تحديد الماهية الغامضة والمراوغة لانفعالاته أو إدراكها يشعر بعجز اللغة العادية عن القيام بهذه المهمة ومن ثم استخدام لغة شعرية ، لغة خاصة⁴. ومن تلك السبل الفنية والطرق التعبيرية ، التي توسل بها الشاعر مفدي زكرياء ليرتفع بلغته من عموميتها ويتحول بها إلى صوت شخصي ، وينظمها من خلال رؤيته وموهبته في أغنى الأشكال تأثيرا ، مستثمرا دلالاتها وأصواتها وعلاقاتها وبنائها وإيقاعاتها على نحو فريد⁵.

فضلا على ترتيب وحداتها الذي يستند إلى تلك الطريقة الفنية التي نعني بها التقديم والتأخير ، أي تقديم المتأخر ، وتأخير المتقدم وفق ما تلميه وتقتضيه الوظيفة الشعرية ، لأنه من العادة أن يرتبط ترتيب الكلام بترتيب المعاني في النفس .

فالتقديم والتأخير باب كثير الفوائد جم المحاسن واسع التصرف بعيد الغاية لا يزال يفتر لك عن بدیعة ويفضي بك غلى لطيفة ولا تزال ترى شعرا يروك مسمعه ويلطف لديك موقعه ثم تنظر فتجد سببا إن راقك ولطف عندك أن قدم فيه شيء وحول اللفظ عن مكان إلى مكان⁶.

وبذلك لا يعدو أن يكون التقديم والتأخير ، مجرد تحريك موضعي للكلم من مكان حسن إلى مكان أكثر حسنا ، لغاية

الآداب ، العدد 95 ، جامعة صلاح الدين ، أربيل.

1- محمد حسين أبو موسى : دلالات التراكيب ، منشورات جامعة قاريونيس ، ليبيا ، ط1 ، 1979 ، ص255

2- جلال الدين بن عبد الرحمان السيوطي : الإتقان في علوم القرآن ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، مكتبة العصرية بيروت ، ط1 ، 2006 ، 148/1-149

3- رجاء عيد : لغة الشاعر ، دار المعارف ، القاهرة ، 1985 ، ص5

4- جابر عصفور : الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ، عند العرب ، دار التنوير للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1983 ، ص119-120

5- عدنان حسين العوادي : لغة الشعر الحديث في العراق بين مطلع القرن العشرين والحرب العالمية الثانية ، دار الحرية بغداد 1985 ، ص9

6- عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز في علم المعاني ، شرح ، محمد عبد المنعم الخفاجي ، مكتبة القاهرة ، مصر ، ط1 ، 1969 ، ص85

جمالية بلاغية ، أي هو تبادل في المواقع ، تترك الكلمة مكانها في المقدمة لتحل محلها كلمة أخرى لتؤدي غرضا بلاغيا ما كانت لتؤدي لو أنها بقيت في مكانها الذي حكمت به قاعدة الانضباط اللغوي¹. فهو بذلك انزياح سياقي يصبح معلما متميزا للشعرية².

تقديم الخبر على المبتدأ :

ففي قول الشاعر :

يا ثورة التحرير ، أنت رسالة

لك في الجزائر حرمة قدسية

أزلية إعجازها ، الإلهام

وبكل قلب في الوجود هيام³

نجد أن الجار والمجرور قد تصدرا الجملة في صدر البيت الثاني ، وكنا موضع عناية واهتمام الشاعر لذا قدمها ، والعرب يقدمون الذي بيانه أهم لهم ، وهم ببيانه أعنى ، وإن كنا جميعا يهينهم ويعينانهم⁴. فكاف الخطاب تعود على الثورة الجزائرية التي هي مصدر إلهام الشاعر ولذلك خصها بالعناية في محاولة منه ، لتأكيد رؤية خاصة مفادها أن الثورة هي التي تصنع حرمة الشعب الجزائري ، فكان جديرا به أن يلتفت حولها ، ويحيطها بهالة من القداسة والطقوس الدينية .

إن هذا المسلك قد حفز ذهني ، بل أربكني وخلخل مشاعري ، فجعلني أحرار من وجود تقديمين في موقع واحد (لك) (في الجزائر) ، وأنساءل من أين اكتسبت الثورة قدسيتها ، لأنها ارتبطت بالجزائر ؟ أم هي قدسية مطلقة تتعلق بكل ثورة في أنحاء المعمورة ؟ هل هي ثورة ضد الاستعمار فقط ؟ أم هي ثورة عامة تطال الاستعمار الخارجي والداخلي ؟ أم هي ثورة على الظروف الاجتماعية المزرية ، أم ثورة فكرية ، أم ثورة أخلاقية ... الخ .

لكن الصحيح فعلا " أن مجرد المخالفة ينبئ عن غرض ما ، وأن هذا الغرض قد يكون توجيها لالتفات السامع إلى كلمة من كلمات عن طريق إبراز هذه الكلمة إبرازا يتحقق عنه تأثير ما وهي فكرة قررها بأسكال حينما صرح بأن الكلمات المختلفة الترتيب يكون لها معنى مختلف وإن المعاني المختلفة الترتيب يكون لها تأثيرات مختلفة⁵.

وربما كان تقديم الجار والمجرور (شبه جملة) المتعلق بالخبر المحذوف ، من أكثر أنواع التقديم التي وردت في ديوان الشاعر مفدي زكرياء ، ومثال ذلك قوله :

وفي صحرائنا جنات عدن

وفي صحرائنا الكبرى ، كنوز

وفي صحرائنا ، تبر ، وتمر

وفي صحرائنا شعر ، وسحر

وفي صحرائنا ، أدب ، وعلم

وفي واحاتنا ، ظل ظليل

بها تنساب ثروتنا انسيابا

نطاردهن عن مواقعها الغرابا

كلا الذهيين : راق بها وطابا

كلا الملكين ، حط بها الركابا

زكا بها المثقف واستطابا

تفوز به ، نواعرها حبابا⁶

إذ قدم الخبر (في صحرائنا) على المبتدأ (جنات ، كنوز ، تبر ، شعر ، أدب) وغايته من التقديم إظهار العناية بالخبر الذي ارتبط بالصحراء ، مستقط رأسه ، ليتأملها تأملا جاليا بغية إظهار مواطن الحسن فيها ، وهذا يجعلنا نستحضر

1- منير سلطان : بلاغة الكلمة والجملة والجمال ، منشأة معارف ، الإسكندرية ، د ت ، ص 138

2- جون كوهين : بنية اللغة الشعرية ، ص 18

3- مفدي زكرياء : اللهب المقدس ، ص 47

4- سيبويه : الكتاب : تحقيق : الأستاذ عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط 3 ، 1988 ، ج 1 ، ص 34

5- عبد الحكيم راضي : نظرية اللغة في النقد العربي ، مكتبة الخانجي ، مصر ، 1980 ، ص 213

6- مفدي زكرياء : اللهب المقدس ، ص 35

قصيدة للشاعر الأمير عبد القادر يفاضل فيها بين البداوة والحضر ، مطالعها :

يا عاذرا لامرئ قد هام بالحضر وعاذلا لمح البدو والقف¹

فالتجربة الشعرية تتكرر مع مفدي زكرياء والمواقف الشعورية والنفسية تعاد ، قلق وإحساس بالغربة ينتابني الشاعر ، فالصحراء تمثل البيئة الجغرافية التي نشأ وترعرع فيها ، هي الطلل الذي يحن إليه لأنه يذكره بالأحبة ، وبذلك تصبح الصحراء محفزا للحياة والمقاومة ، فمن الطلل ذاكرة الجماعة محفورة تقاوم الفناء وتعلم البقاء². وفي المقابل فالصحراء وما حوته من مصادر رزق ومواطن جمال ، كانت سببا في جلب الولايات للشعب الجزائري ، حيث كانت أطماع الأوروبيين عامة والفرنسيين خاصة مواجهة للصحراء الجزائرية دون أن تنتاسي حجم الأطماع التوسعية التي أظهرتها دول الجوار ، والتي كانت ترغب في بسط نفوذها على مناطق بعينها من جنوبنا الكبير .

تقديم المفعول به على الفاعل :

يقول الشاعر :

وما فعل الغشم في أمرها وقد فوضت فيه جهالها

فلن تستحق العلا أمة تولى القيادة أرذالها

وكيف تريد البقاء بلاد تعد الضفادع أبطالها³

الأصل في ترتيب عناصر الجملة الفعلية أن يتقدم الفعل ثم الفاعل ثم المفعول به ، لكن الشاعر فاجأنا بهذا الانزياح اللغوي الذي خرق قواعد اللغة العربية ، وخلخل نظام بناء جملتها ، حيث نلاحظ تقديم المفعول به " العلا " على الفاعل " أمة " في البيت الأول وتقديم المفعول به " البقاء " على الفاعل " بلاد " في البيت الثاني ، حيث يفترض في البناء النمطي لهاتين الجملتين أن تكونا على الشكل الآتي :

فلن تستحق أمة العلا

وكيف تريد بلاد البقا

والحقيقة أننا حين نزع أن الشاعر قد خرق قواعد اللغة ، فإننا نتهمها بالقلوبة والجمود والتمسك بنمط ترتيني صارم لا تفارقه ، وهذا يتعارض مع ما ينشده المبدع من لغته التي يريدنا " أن تتجاوز دائما هذا الإطار الثابت النفعي إلى مستوى آخر يحاول فيه أن يمتلك اللغة ويصادقها ، ويحرك دوالها كيف يشاء ، فيقدم ما شاء له فكره أن يقدم ، ويؤخر ما شاء له أن يؤخر ، حرصا منه على تحقيق الهدف التأثيري والإيصالي في وقت معا ، فالتقديم والتأخير من الوسائل التي يحطم المبدعون من خلالها الإطار الثابت للغة لتحقيق أهدافهم⁴.

مفدي زكرياء لم يقدم إلا لفائدة والظاهر أنها العناية والاهتمام بالمقدم ، والإفصاح عن فكرة سيطرت عليه ، ولعل في هذا التغيير الذي طرأ على الجملتين ، جمالا وتأثيرا ، لأنه السبيل إلى نقل المعاني من ألفاظها إلى المخاطبين كما هي مرتبة في ذهن المتكلم حسب أهميتها عنده ، فيكون الأسلوب صورة صادقة لإحساس المتكلم وصدق مشاعره⁵.

1- الأمير عبد القادر الجزائري ، الديوان ، جمع وتحقيق : العربي دحو ، منشورات ثالة ، الأبيار ، الجزائر ط3 ، 2007 ، ص44

2- عبد السميع حسنة : أحلام الخيال الفني مستويات الدلالة في شعر ذي الرمة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1998 ، ص59

3- مفدي زكرياء : اللهب المقدس ، ص275-276

4- رمضان صادق : شعر عمر بن فارض - دراسة أسلوبية ، الهيئة المصرية العام للكتاب ، ط 1998 ، ص113

5- خليل أحمد عمارة : في نحو اللغة وتراكيبها - منهج وتطبيق - دار عالم المعرفة للنشر والتوزيع ، جدة ، ط1 ، 1984

فالمقدمان أمران جليان ، وسببان عظيمان في وجود وكيونة الأم وديمومتها وبدونها هي أمة آيلة إلى الزوال والفناء . فالعلا مطلب عزيز تنشده كل نفس أبية طموحة ، ترجو الخلاص من قيودها وهوانها وتأخرها بين النفوس ، فهو السبيل السؤدد والتعريف والحضور ، والتقاعس عنه مجلبة للعبودية والتنكير والغياب . ولن يتأتى ذلك إلا إذا تولى قيادة الأمة خيارها لأنهم يدركون خطورة المهمة التي أنيطت بهم وصعوبة التكليف الذي تصدوا له . أما البقاء فهو سر الوجود ، إذ يقتضي أن تنسب المكرمات إلى أصحابها فيوجه إليهم الشناء والحمد جزاء بما فعلوا . وقد أفلح مفدي زكرياء في هذا التقديم المرتبي لأنه ، يرجو بل يعلق كل الآمال على أبناء وطنه أن يلتفتوا حول ما يحقق النجاح - (العلا ، البقاء) - للأمة الجزائرية ويعتصموا به وأن يتلافوا كل ما يسلبهم ذلك من حسابات شخصية حزبية ضيقة ، فالظروف لا تسمح بذلك ، إن هذا التغيير في الترتيب الأصلي لمكونات الجملة الفعلية ، حيث يقدم المفعول به ويؤخر الفاعل يدل على إرادة قصدية يبغي من ورائها الشاعر ، الكشف عن معاني محجوبة ما كانت لتظهر لو بقي التشكيل البنائي على حاله ، فالتقديم " يكون دائما لغرض يتعلق بالمعنى وليس لغرض يتعلق بالبنية الشكلية أو بموسيقى الكلام " ¹ ، فهو حين يقول :

مضى زمن القياصرة القدامى وعهد الفتك بالضعفا توارى
رمى المستعمرين إلى بحيم زمان لم نزل فيه أسارى ²

قد قدم المفعول به (المستعمرين) على الفاعل (زمان) ، لأن ما يشغل الشاعر هو الاستعمار وهو المعنى بالحديث والقذف إلى الجحيم ، فكان أولى بالتقديم ، وقد يكون ذلك من أجل خلق نوع من التشويق لدى القارئ ، ليعرف من هو الذي رمى المستعمرين إلى جحيم ، ليظهر في الأخير الفاعل بعد طول انتظار ، وبعد أن يكون التشويق قد بلغ ذروته وفي نفس القصيدة يقول :

وفي أرض الجزائر ، معجزات غدت للمؤمنين بها ، منارا ³

في البيت تقديمان ، فالشطر الأول تقدم فيه الخبر شبه الجملة (في أرض الجزائر) على المبتدأ (معجزات) سعيا منه لإرضاء الذات وتعلقها بهذه الأرض الطيبة ، التي تمثل للشاعر الدار الذي لا بديل عنها ، فهي أرض مقدسة ولو لم تكن كذلك لما حظيت بهذا الشرف في أن تكون محلا للمعجزات والحوارق دون غيرها من البلاد ، وكأن المعجزة قد شرفت بأن تستقر

في أرض الجزائر الطاهرة ، فتغدو بذلك هذه الأرض موطن استقطاب للمؤمنين ومصدرا للاستشارة والحماس في نفوس الجمهور المستمع حتى تستحوذ على مشاعره ، أما في الشطر الثاني من البيت ، فتتقدم الفضلة وتتأخر العمدة ، تقدم شبه الجملة الجار والمجرور (للمؤمنين بها) على المفعول به (منارا) إشارة إلى العقيدة الإيمانية الراسخة ، فالجزائر بلد الإسلام والإيمان ، وفي ذلك رسالة صريحة إلى كل من يشكك في إسلامية وعروبة الجزائر ، ليعلم أن :

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب

ويصدق الأمر ذاته على قول الشاعر :

وتعمدوا قطع الطريق فلم ترد أسبابه ، بالعرب أن تتقطعا

سب بدنيا العرب زكى غرسه

ألم فأورق دوحة وتفرعا¹

لقد قدم الشاعر المفعول به المضاف (غرسه) ليكون في مرتبة قريبة من الفعل ، ليقول نوعا من الانسجام بين الفعل والمفعول ، وليكون هذا الاقتران سببا في إظهار الفكرة التي يريد الشاعر ، ومفادها أن الجزائر عربية الأصل منذ سنين غابرة ، وهذا العروبة قد تجذرت وسقيت بدماء أبنائها فمت و أورقت جيلا يعتز بعروبته فهيئات أن يتنازل عنها محملا كانت الظروف ، وهذا ما يرغب مفدي زكرياء في أن يوصله للمتلقي حتى يحدث فيه التأثير والانفعال الملائم². إن هذا التقديم يدل على براعة فنية تعرض قدرة الشاعر سعيًا منه إلى إظهار العدالة ومواطن القوة الخفية عند أبناء يعرب دون استثناء ، وفي ذلك يقول :

تأوي الكرام ، وتستند المتطلعا

ولمصر دار العروبة ، حرة

ألقى عصاه ، بها الكلم فروعا³

سحرت روائعها المدائن عندما

يحيلنا الشاعر إلى مشهد عظيم يروع أعداء الله ، حينما وقف سيدنا موسى - عليه الصلاة والسلام - على أرض الكنانة ، أمام فرعون الطاغية وزبائنه وقفة الرجل المؤمن بنصر الله وألقى عصاه فالتفت ما كانوا يأفكون ، فكان تقديم المفعول به (العصا) في سياق المدح والثناء على مصر وأهلها ، على الفاعل (الكلم) لما قدمته مصر شعبا وحكومة - آنذاك - للعرب عامة وللجزائر خاصة في أيام محنتها واحتلالها ، ولسنا من ينكر الجميل .

تقديم الحال :

يقول مفدي زكرياء :

وتسلقوا متفسحين جبالها

زوروا هناك مكرمين خطوطها

وتفيثوا متنعمين ظلالها⁴

وتوزعوا بسهولها وشعابها

نلاحظ في هذا الأداء اللغوي تقديم الشاعر لـ " الحال " مكرمين - متفسحين - متنعمين " على المفعول به خطوطها - جبالها - ظلالها على الترتيب ، مع أنه من الفضلات ، فالحال فضلة زائدة على الكلام وسياق الجملة⁵ ، وهو أولى بالتأخير على الأغلب الأعم من كلام العرب وهذا خروج عن نمطية القاعدة النحوية وتغيير في الأداءات الاستعمالية للغة ، وقد أدى هذا التغيير إلى خلق معنى جديد ، وإضافة دلالات جديدة للغة فهو يسخر ويتهكم من هؤلاء المتمردين بل يبالغ في تحقيرهم وإذلالهم وتهميشهم ، بدعوى أنهم مدعوون لزيارة الجزائر للاستجمام والتنزه لا غير ، فهم ليسوا أهل حرب ولا يقدرّون خوضها ، لأنهم ضعاف .

الأساليب الإنشائية:

الاستفهام : الذي " هو طلب خبر ما ليس عند المستخبر " ⁶ ، وقيل : " هو طلب العلم بشيء لم يكن معلوما من قبل

1- مفدي زكرياء : اللهب المقدس ، ص60

2- مجيد عبد الحميد ناجي : الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1984 ، ص114

3- مفدي زكرياء : اللهب المقدس ، ص63

4- المرجع نفسه ، ص159

5- العكبري : اللباب في علل البناء والإعراب ، تحقيق : عبد الإله النبهان ، دار الفكر ، دمشق ، سوريا ، ط1 ، ج1 ، ص301

6- ابن فارس أحمد : الصحابي في فقه اللغة العربية وسنن العرب في كلامه ، تح : عمر الطباع ، ط1 ، بيروت ، مكتبة المعارف 1993 ، ص186

بأداة خاصة¹.

وهو أيضا : " استخبار وطلب من المخاطب أن يخبر أو يفهم عن شيء لم يكن معلوما بأداة خاصة "بل هو أكثر الوظائف اللغوية استعمالا ، لأن الاتصال الكلامي يكاد يكون حوارا بين مستفهم ومجيب والاستفهام طلب لفهم³. ولعلنا في دراسة هذا الأسلوب في شعر الشاعر مفدي زكريا نحاول الإمساك ببعض رؤاه الشعرية باعتبار أن السؤال بنية عميقة منتجة لدلالة⁴.

ولأن صوته الداخلي يطفح بالثورة والتحرر استثمر مفدي زكرياء إمكانيات هذا الأسلوب ليفصح عن صوت الأنا المتمردة والرافضة للاستعمار ، مدركا أن الوجود عندما يضع نفسه موضع سؤال ، يتخلى عن صحب انبثاقه ، وحسم نفيه ، ليكشف عن نفسه وينفتح ، ويفتح الجملة على آفاق جديدة ، بحيث تغدو الجملة بذلك الانفتاح فاقدة لمركزه الذاتي الذي يصبح خارجا عنها مقيما في المحايد⁵ ، لتتجسد شاعرية النص المفدوي بالاختلاف والابتعاد عن كل ما يمت للوجود الاستعماري بصلة ، لذلك حاول الشاعر أن يوسع من دائرة الاستفهام ووظيفته التعبيرية ليربط به معاني كثيرة تجعله أكثر خصوصية للدلالة على إحساسه بالأشياء ، وكيفية رؤيته لها⁶. يقول الشاعر :

أمن العدل ، صاحب الدار يشقى
وأمن العدل ، صاحب الدار يعرى
ودخيل بها يعيش سعيدا ؟
وينال الدخيل عيشا رغيدا⁷

الاستفهام هنا مجازي يعبر عن حيرة وقلق شديدين يتألبان الشاعر لما يحدث بأرض الجزائر الطاهرة من ظلم وجور وتعسف في حقها وحق شعبها الذي يرى أرضه تغتصب عنوة وحرمانه تستباح ، وخيرات بلاده يتمتع بها الدخلاء من المعمرين / الأوروبيين ولا يجد من ينصره ، وقد صاحب هذا الاستفهام استنكار تويخي للدلالة على أن المستفهم عنه أمر منكر وعرفا وشرعا⁸ ، وهو موجه لدعاة الديمقراطية وأنصار حقوق الإنسان الذين يتعاملون مع هذه القضايا المصرية التحررية بالكيل بمكيالين ، وهو أيضا استفهام تبكيكي لتلك الأفواه المتشددة والمتسلطة على الشعوب الضعيفة ، إذ لا ينتظر الشاعر ردا .

يقول الشاعر :

دعا التاريخ فاستجابا
وهل سمع المجيب نداء شعب
(نوفمبر) هل وفيت لنا النصابا
فكانت ليلة القدر الجوابا⁹.

الشاعر يقر بأن الله استجاب لدعوات الشعب الجزائري وآماله في أن تتوحد الصفوف أمام المعتصب الظلوم ، فتكون ثورة عارمة ، يقودها الشعب برمته على اختلاف أعمارهم وأطيافه وتوجهاته ، ضاربا كل ما يفرقه عرض الحائط لأن المصير واحد والهدف المنشود واحد فما كان من القريب المجيب إلا أن استجاب لنداء شعب مظلوم طلب نصرته بصوت

- 1- عبد العزيز عتيق : علم المعاني ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1974 ، ص96
- 2- خلف الله محمد أحمد : الفن القصصي في القرآن الكريم ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط3 ، 1965 ، القاهرة ، ص30
- 3- عبده الراجحي : التطبيق النحوي ، دار النهضة العربية ، لبنان ، ط1 ، ص29
- 4- محمد عبد المطلب ، البلاغة العربية ، قراءة أخرى ، مكتبة لبنان ، بيروت - 1997 ، ص291
- 5- مورييس بلانشو : السؤال والجواب ، تعريب عبد السلام بن عبد العالي / موقع www.geocities.com
- 6- صلاح أبو حميدة : البلاغة والأسلوبية ، دار المقداد للطباعة ، ط1 ، غزة ، 2007 ، ص201
- 7- مفدي زكرياء : اللهب المقدس ، ص16
- 8- حفيظة أرسلان شابسوع : الجملة الخبرية والجملة الطلبية تركيبا ودلالة ، عالم لكتب الحديث ، ط1 ، 2004 ، اريد ، ص21
- 9- مفدي زكرياء : اللهب المقدس ، ص30

واحد وضمير واحد ، وقد وفق الشاعر في اختيار أداة الاستفهام " هل " لأنها تختص بطلب التصديق¹. فالشعب الجزائري صدق الله فصدقه الله .

ويقول أيضا : **وهل في المغرب العربي يوما**
سينقطع التوجع والنواح²
 يظهر في البيت صدق أحاسيس مفدي زكريا ، وتطفو النزعة القومية فوق ماء المعاناة ، ألم مس بلاد المغرب العربي ، فكان حريا بالشاعر أن يعزي نفسه في هذا المصير المشترك ، غير قاطع الرجاء في استتباب السكينة وعودة الأفراح في المستقبل القريب (سينقطع).

لم يكن استفهاما محضا ولا تساؤلا حقيقيا ، بقدر ما كان دعاء وتضرعا لرب العالمين في أن يسارع في رفع بلواه أو غضبه عن المغرب العربي الذي خارت قواه وأصابه الوهن لشدة ما لحقه من فواجع الدهر المتتالية .
 دهى الشاعر مرارة وأسى يكادان لا يفارقانه ، فمجرد أن ينجلي هم إلا وأعقبه هم آخر مما دفعه أن يتساءل ولا يرجو الإجابة لأنه يدرك أنه في محيط تشوبه الضبابية ويفتقد إلى أبسط حقوق الإنسانية ، ولا يمكن أن يجد فيه إجابات تطفئ مشاعره الثائرة أو تقلل من حدتها ، لذلك كانت أسئلة كثيفة المعاني والدلالات لا يمكن استقصاؤها لأنها تتعين في ضوء القرائن وسياق الكلام ، وكان النحاة يجتهدون في تعيين هذه المعاني ولكنهم كانوا يستوثقون من ذلك بما يشيرون إليه من قرائن ، مدركين أن الذوق والفهم هما أساس تسمية هذه المعاني³.
 يقول الشاعر :

فلماذا كانت الدمعة حيرى
ولماذا تطلب الصفح ؟ فهلا
بمنايك ؟ وقد رمت الصعودا
كنت تدري (مصطفى) أن لا تعودا؟⁴
 ولأنها للتصديق فقط يستعملها مفدي زكرياء مع الفعل المضارع ليفيد الاستمرارية ، يقول :

وهل من بعد ضائقة وعسر
لنا في كل زاوية نحيب
بما قد نشتهي تجري الرياح
لنا في كل حادثة صياح⁵
 إن ما يتوخاه الشاعر هو أن تستمر رياح التغيير في الحركة والدوران لتحقيق ما يرجوه الشاعر وما يمثل أسمى الغايات عنده ، وهو التحرر واسترجاع السيادة الوطنية .

مفدي زكرياء يقع في سجن مليء بالآلام والفواجع ، لكنه يقف موقف المتصبر ، المتسلي الذي يرجو الخلاص من أحزانه بشعرية فنية صادقة جسدها في وابل من التساؤلات المنتورة في أغلب قصائد ديوانه ، تساؤلات يتدفق من خلالها جملة من الأحاسيس والعواطف التي تسكب في القلب حبا نابضا⁶، للوطن والمغرب العربي والأمة الإسلامية والعربية

1- أبي محمد عبد الله هشام : مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، تح : محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة المدني القاهرة ، 15/1

2- مفدي زكرياء : اللهب المقدس ، ص212

3- كريم حسين ناصح الخالدي : نظرية المعنى في الدراسات النحوية ، دار صفاء للنشر والتوزيع ، ط1 ، 2006 ، عمان ، الأردن ، ص 405

4- مفدي زكرياء : اللهب المقدس ، ص168

5- المرجع نفسه : ص212

6- عبد الهادي خضير نيشان : الصدق الفني في الشعر العربي إلى نهاية القرن السابع الهجري ، أطروحة ماجستير ، جامعة بغداد ، كلية الآداب ، 1983 ، ص18

وللإنسانية جميعا .

يقول الشاعر¹ :

إلام ما تظل تلسعنا الجراح وفيم تبيت تتهشنا الرماح

فالشاعر يستفهم متعجبا من ذلك الشهيد ، الذي عجز أن يخفي دموعه حين أراد أن يركب على متن الطائرة وكأنه يعلم حنقه ومصيره ، فالتعجب " يكون في مقام ما يتعجب فيه المتكلم من مضمون الكلام " ² ، ويتساءل مرة أخرى في عجب لماذا اختار الشهيد مصطفى³ . هذا

الوقت بالذات ليطلب الصفح ، أ هذا مجرد عرف سرى بين الناس أن يودع المسافر أحبابه ويطلب منهم الصفح في جو أشبه ما يكون بالجو الجنائزي أم أن الشهيد على علم مسبق بما يحاك له في الكواليس ؟.

الخاتمة :

بعد هذه المسيرة القصيرة مع بعض شعر مفدي زكرياء للكشف عن جماليات لغته خلصنا إلى جملة من النتائج نجلها فيما يلي :

- لغة الشاعر من قبيل اللغة السهلة الممتعة ، فهي لغة طيبة وعصية في آن واحد تنحو منحى الخطابية مما جعل البعض يشكك في شاعرية مفدي زكرياء بل عده ناظما.
- الشاعر وظف بعض التراكيب النحوية بطريقة تشي بفصاحة الرجل ، فاستعمله مثلا للتركيب الشرطي محترما القواعد والضوابط التي وضعها علماء اللغة يؤكد أن مفدي زكرياء متكنن من هذه اللغة ، كيف لا وهو الحامل لكتاب الله.
- استثمر الشاعر ظاهرة التقديم والتأخير ، وقد كان بارعا فيها حيث أظهر مهارته وقدرته في استخدام التراكيب بطريقة انزاحت عن المألوف المعتاد.
- استخدم الشاعر مجموعة من الأساليب الإنشائية بدلالات لغوية متعددة .
- وفي الأخير نقول أن لغة الشاعر مفدي زكرياء لغة بسيطة قريبة من محيطه وقصيدته ما هي إلا نتيجة بين الشاعر و واقعه.

¹ مفدي زكرياء : اللهب المقدس ، ص212

² - حفيظة أرسلان شابسوغ : الجمل الخبرية والجملة الطلبية تركيبا ودلالة ، ص215

³ - الشهيد مصطفى فروخي ، الذي عين سفيرا للجزائر في الصين الشعبية سنة 1960 ، لكن يد الإجرام اغتالته ، حيث احترق هو وعائلته في الطائرة التي كانت تنقله إلى بكيين